خمريات الوليد بن يزيد

هو الوليد بن يزيد بن عبد الملك، خليفة وابن خليفة، ولي أبوه الخلافة لما بلغ الحادية عشرة. وجعله صغر سنه يعهد لأخيه هشام ثم لابنه الوليد.

وكل الدلائل تشير إلى أن يزيد نشأ ولده نشأة كلها ترف ودلال. فقد كان هو نفسه صبًّاً بالدلال والترف. فأسبغ من فنونهما على ابنه. وقد عرف هو نفسه بحبه لمباهج عصره. التي تمثلت بالخمر والغناء ولبس الثياب الحريرية.

قيل عن يزيد «إنه يشرب الخمر، ويلبس الحُلَّة قُومت بألف دينار، حَبابَة عن يمينه وسلاّمة عن يساره تغنيانه» وقيل: «اشترى حبابة بأربعة آلاف دينار وسلاّمة بعشرين ألفاً». وفي غير مكان من كتاب الأغاني نجده يستقدم المغنين من الحجاز فيقيمون له الحفلات الغنائية في دمشق ويقدم لهم الجوائز. حتى لتبلغ الجائزة للمغني ألف دينار.

بين هذه المعازف وما يتصل بها من لهو شبّ الوليد. ولم يكد يتجاوز الخامسة عشرة من حياته حتى توفي أبوه وولي الخلافة عمُّه هشام. وقد جعله شبابه وفراغه وما في حجْره من أموال يسير نفس السيرة اللاهية التي سار عليها والده. بل أوغل فيها إيغالاً.

ومن ترفه الشديد أنه كان يلبس الوشي والقصب والثياب الملونة والعقود من الجواهر ويغيرها في اليوم مراراً كما يغير الثياب.

ولزمه المغنون وكذلك الجواري المغنيات اللواتي اشتراهن وبالغ في شرائهن يجتمعون على اللهو والمرح.

ولقد أسرف في اللهو إسرافاً شديداً حتى فكر هشام بن عبد الملك (عمه) الذي خلف والده أن يصرف ولاية العهد عنه لفساد خُلُقه ولكنه توفي قبل أن يحقق فكرته.

وتولى الوليد عرش الخلافة، وترك ديواناً من الشعر مزج فيه بين ممارسة الخلافة واللذة بمختلف أشكالها، وقد عملت تجربة الوليد على توكيد الصلة بين الشعر والحياة اليومية وخاصة جوانب اللهو واللذة من هذه الحياة وهي تتجسد في الحب والخمرة.

ويجمع النقاد على أن الوليد شاعر متميز، فما هي موضوعات شعره

الأساسية وما سماتها الفنية؟

الخمرة:

لم تكن الخمرة عند الوليد موضوعاً ثانوياً تدرج في ثنايا القصائد بل أصبحت تنظم في مقطوعات خاصة، لها وحدتها الموضوعية والمعنوية تنبض بالحياة لسبب طبيعي هو أن ناظمها عاشق للخمر وقد ثقف أشعار سابقيه في هذا الميدان. ويعده الباحثون صاحب هذا الفن الشعري (الخمرة) من جهة التأثير بمن جاء بعده كأبي نواس ومن تلاه فهو الذي فتح لهم باب هذه المقطوعات الرشيقة التي قلما زادت على عشرة أبيات، والتي تختص بالخمرة وسقاتها ووصف آلاتها وما تحدث من نشوة وصفاً يدل على العشق والفناء فيها.

لقد كان يقبل على الشراب إقبال المفتون فتشيع في شعره روح المرح الشديد، مما أفاض على خمرياته حيوية غريبة هي الحيوية نفسها التي نجدها في خمريات أبي نواس:

عللاني واسقياني	من شراب أصبهاني
من شراب الشيخ كسرى	أو شراب القيروان
إنّ في الكأس لمسكاً	أو بَكّفيْ مَنْ سقاني
كللاّني توّجاني	وبشعري غنياني
إنما الكأس ربيع	يُتعاطى بالبنان
وحُميّا الكأس دبّتْ	بين رجلي ولساني

ولا ريب في أن هذه خمرية طافحة بالحياة نظمها شاعر يعشق الخمر ويعيش لها، يشربها إذا أصبح أو أمسى، ولا يكتفي بشربها بل يستحم بها يتضمّخ بها كأنها ماء معطر، فهي لذته وهي نعيم الحياة في رأيه.

الوليد هو صاحب هذا الفن، فن الخمريات في الشعر العربي، فهو الذي نهج للعباسيين من مثل أبي نواس طُرقه، وذلل مسالكه ورسم لهم صوره ووقّع لهم نغمه:

اصْدَعْ نجيَّ الهموم بالطرب	وانعَمْ على الدهر بابنة العنب
واستقبل العيشَ في غضارته	لا تقفُ منه آثار مُعْتَقِب
من قهوة زانها تقادمها	فهيَ عجوز تعلو على الحقَب

أشهى إلى الشَّرْب يومَ جَلْوتها من الفتاة الكريمة النسب
فقد تجلّت ورقَ جوهرها حتى تبدّت في منظر عجب
فهي بغير المزاج من شرر وهي لدى المزج سائلُ الذهب
كأنها في زجاجها قبسٌ تذكو ضياءً في عَيْن مُرْتَقب

ولو لم نعرف صاحب هذه الخمرية لقلنا إنها لأبي نواس، ففيها طابعه وفيه فتنته بالخمر وصبابته، وفيها رقة حسه، ودقة مشاعره، مما ينم على أثر الحضارة والترف.

ونقرأ أيضاً هذه المقطوعة ذات اللهجة الآمرة العابثة المرحة، والمعاني الجديدة:

أدر الكأس يميناً لا تُدِرْها ليسار
اسقِ هذا ثم هذا صاحب العود النضار
من كميت عتقوها منذ دهر في جرار
ختموها بالأفاو يه وكافور وقار

لقد جعل الوليد من الخمر منهجاً له في الحياة، فها هو ذا في بعض لحظاته يرفض ذلك المُلك ويكتفي بمحبوبته وكأسه ومغنيته بديلاً لعالم الصراع والمكائد على الحكم:

دعوا لي سُليمى والطلاء وقينةً وكأساً ألا حسبي بذلك ما لا
خذوا مُلككم لا ثبّت اللهُ ملككم فليس يساوي ما حييت قبالا

وعبّر عما في نفسه دون مواربة أو تستر تجاه أفعال عمه هشام لخلعه من ولاية العهد:

طاب يومي ولذّ شرب السلافة إذ أتانا نعي من في الرصافة
وأتانا البريد ينعى هشاماً وأتانا بخاتم للخلافة
فاصطبحنا من خمر عانة صرفاً ولهونا بقينة عزّافة

لا بد أن الضيق الشديد الذي شعر به جعله يبدأ بالفعل طاب ولذ عند سماعه بوفاة عمه.

لقد شكل موت هشام مرحلة جديدة في حياة الوليد فأقبلت عليه الدنيا وصار بوسعه أن يفعل ما يحلو له بعد أن:

هلك الأحولُ المشو م فقد أُرسل المطر

وملكنا من بعد ذا ك فقد أورق الشجر

الحب:

يأتي شعر الحب عند الوليد في الدرجة الثانية بعد شعره في الخمرة، وهو شعر رقيق يصدر عن عاشق صب. فقد طلق زوجه سعدة بعد حبه لأختها سلمى، لكن أباها رفض تزويجه إياها، ثم اقترن بها بعد توليه الخلافة، لكن الموت فرق بينهما، مما أجج لوعته وبكاءه:

ألا تجزين من تيمت عمراً ومَنْ لو تطلبين لقد أتاك

ومن لو قلت مُتْ وأطاق موتاً إذا ذاق الممات وما عصاك

وأشعاره في سلمى زاخرة بمعاني الصبابة والشوق والحسرة والأسى:

لو رأينا لسليمى أثراً لسجدنا ألف ألفٍ للأثر

واتخذناها إماماً مرتضى ولكانت حجنا والمعتمر

إنما بنت سعيد قمرٌ هل حرِجنا إن سجدنا للقمر؟

ومن قوله فيها:

ويْحَ سلمى لو تراني لعناها ما عناني

متلفاً في اللهو ما لي عاشقاً حور القيان

شاق قلبي وعناني حبُّ سلمى وبراني

ولكم لام نصيح في سُليمى ونهاني

ومن مقطوعاته العذبة الرشيقة التي يذكرها فيها:

خبروني أن سلمى خرجت يوم المصلى

فإذا طير مليح فوق غصن يتفلّى

قلت من يعرف سلمى قال: هاثم تعلّى

قلت يا طير ادن مني قال: ها ثم تدلّى

قلت هل أبصرت سلمى قال: لا ثم تولّى

ولا تكاد تخلو مقطوعة غزلية من اسمها، ولم يطل العمر به بعدها إذ قُتل وهو في السادسة والثلاثين. ومع هذا الحب الشديد والحزن لم ينسى طربه ومجالس شرابه

وعازفاته وساقياته:

ولقد قضيت– وإن تجلّل لمتي شيب– على رغم العد الذّاتي

من كاعبات كالدُّمى ومناصف ومراكب للصيد والنشواتي

القيمة الفنية لشعره:

أخذت الخمريات عنده كل رسومها وصفاتها التي عاشت بها من بعده، لا من حيث معانيها، بل من حيث لغتها وأساليبها، وهذا أهم جانب في شعره.

ويشعر كل من يقرؤه أن شعره يُصاغ من لغة عادية ليس فيها غريب ولا مهجور وإنما فيه المألوف القريب (وكان عمر بن أبي ربيعة وأصحابه من شعراء الغزل الحجازيين هجروا أساليب الشعر القديمة إلى اللغة المألوفة في الحياة اليومية تحت تأثير الغناء وتطور الحياة العربية وما امتزج بها من حضارة).

وكل من يقرأ الوليد يشعر عنده بالصورة اللغوية نفسها، بل لقد نمت الصورة عنده فأصبح أسلوب الشعر أطوع وأكثر مرونة وأقرب إلى اللغة المألوفة.

(خلع عن شعره وقار العبارة العربية المأثورة وتحرر من الشدة البلاغية نتيجة لخروجه على مألوف الشعراء الرسميين، واعتمد الألفاظ السيالة الدانية إلى روح التعبير الشعبي البديهي المباشر، لأنه شخص لم يكن الشعر همه الوحيد).

وكان كل شيء يُعد الوليد لإعطاء هذه الصورة، فقد كان أكثر اختلاطاً بأوساط المغنين، وكانت الحضارة تتعمقه بأكثر مما تتعمق شعراء الحجاز بمعنى اتحد عنده الغناء والشعر والحضارة فهو ابن قصور دمشق المتأثرة تأثراً عميقاً بالحضارة البيزنطية، وهو شاعر ثم عازف قيثار.

يقول أبو الفرج: «وله أصوات صنعها مشهورة وقد كان يضرب بالعود، ويُوقِع بالطبل ويمشي بالدُّف على مذهب أهل الحجاز».

وبهذا نجد أنه قد عبر من خلال شعره عن أكثر من اتجاه، وهو شخصية ليست نمطية بل مثيرة للجدل.